فهم ذلك أيضاً ، وأنكر على من طلق ولم يشهد وراجع ولم يشهد ، واعتبره مخالفاً للسنة ، اذ خالف ما أمر به فى القرآن . وهما عربيان يفهمان لغتهما بالفطرة السليمة ، قبل فساد الألسنة ، ودخول العجمة على الناس

وأنا إذ أحتج بأقوال من نقلت قولهم من الصحابة والتابعين والمفسرين فانما أحتج بها من وجهة الدلالة العربية وفهم مناحى الكلام فى الآيات الكريمة ، لا من جهة الرأى الفقهى الاستنباطى ، فقد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً ، فبعضهم يرى وجوب الاشهاد على الطلاق وحده ويجعله شرطاً فى صحته ، وبعضهم يرى وجوبه على الرجعة وحدها ويجعله شرطاً فى صحتها ، وبعضهم يراه مستحباً فقط فى الأمرين ، وبعضهم يراه واجباً فيهما ولا يراه شرطاً فى صحة واحد منهما ، كما يفهم من كلام عمران بن حصين

وأما الذى أراه وأذهب اليه فهو وجوب الاشهاد فى الأمرين جميعاً وأنه شرط فى صحة كل منهما ، لأنه ثبت من دلالة الآيتين فى أول سورة الطلاق أن الله سبحانه أمر الرجلين بالاشهاد عند الطلاق وعند المراجعة ؛ والأمر فى حقيقته دائماً للوجوب ، ولا يدل على الندب الا دلالة مجازية ؛ والمجاز لا يراد من الكلام الا بوجود قرينة مانعة من ارادة المعنى الحقيقى ، ولا قرينة هنا أبداً تمنع ارادة المعنى الحقيقى ، وان ادعى الشوكانى فى نيل الأوطار ذلك إذ قال (ج ٧ ص ٤٣ — ٤٤) : « ومن الأدلة على عدم الوجوب أنه قد وقع الأجماع على عدم وجوب الاشهاد فى الطلاق ، كما حكاه الموزعى فى تيسير البيان » ، وما أكثر دعوى العلماء الأجماع ، خصوصاً فى مسائل الطلاق ! ! وهى دعوى عريضة ، يدعونها فى كثير من المواطن إذا ما غلبتهم الحجة وأعوزهم البرهان ، وليس لهم عليها أى دليل ! كما قلت فى (نظام الطلاق) وبينت هناك المعنى الصحيح للاجماع ، « لكثرة إرجاف المرجفين بدعوى الاجماع فى الطلاق ، ليُرعبوا العلماء المجتهدين الصادقين المخلصين ، ويصرفوهم عن البحث فيه ، أو يؤلبوا عليهم العامة والغوغاء . فتحاماه أكثرهم وأحجموا عنه ، إلا من ثبّت الله قلبه وأيده بروح من عنده » (ص ٩٦ — ١٠٣)

(البقية فى العدد القادم)

أحمد محمد شاكر
القاضى الشرعى

دانتى أليجيرى

والكوميديا الالهية

وأبو العلاء المعرى ورسالة الغفران

نقينا فى كلمة سالفة أن يكون دانتى الليجيرى قد تأثر فى كوميديته برسالة الغفران لأبى العلاء ، ورجحنا أن يكون قد احتذى ملحمة (الأنييد) للشاعر الرومانى الخالد فرجيل ، وأن تكون ثقافته الكبيرة واطلاعه الواسع على الأدبين المسيحى والاسلامى ، ثم إلمامه بالأدب الاغريقى القديم قد شقّق له فجاج الخيال فاستطاع أن يضفى على كوميديته ظلالاً عبقرية جذابة من أشتات هذه الثقافات . فمن الأدب المسيحى استمد إيمانه الذى تفيض به الكوميدية ، واقتبس من رؤيا يوحنا اللاهوتى أمواهاً لوّن بها فصوله ؛ ومن قراءاته الاسلامية — وأهمها القرآن — افترض أخيلة للجحيم خصبة قوية ارتفع بها الى ذروة الأدب السامى الرفيع ... أما من الأدب الاغريقى القديم فنرى أن دانتى — إما بالذات وإما بالوساطة — قد قبس قبسة من أسطورة أرفيوس وقبسة أخرى من هرقل وقبسات غير هذه وغير تلك من الأساطير التى تتناول الدار الآخرة (هيدز)

على أن ملحمة الأنييد لفرجيل هى التى أوحت الى دانتى فكرة الكوميدية . وقد رجعنا الى الفصل الطويل الممتع الذى كتبه (بوكاشيو) عن مواطنه ، وقرأنا كذلك ما كتبه الأستاذ فلبّو ڤلانى فى مجموعته (Lives of Illustrious Florentines) وما كتبه الأستاذ العلامة ج . ا . سيموند عن دانتى ، والمقدمة التى كتبها إدمند . ج . جاردنر للكوميدية (ترجمة كارى سنة ١٩٠٨) ، ثم الفصل الطريف الذى عقده الأستاذ رتشارد جارنت عن دانتى فى كتابه (تاريخ الأدب الايطالى ص ٢٤ — ٥٢) فتأكد لنا أن دانتى كان معجباً الى غير حد بالشاعر الرومانى فرجيل وأنه كان يحفظ الكتاب السادس من الأنييد عن ظهر قلب ، وأن هذا الكتاب السادس (الذى سنلخصه للقراء) من الأنييد إن هو إلا صورة مصغرة لجحيم دانتى مع فارق الغاية واختلاف المقصد بين كل من الشاعرين

أما أسطورة المعراج الملفقة[1] التي لفتتنا اليها الرسالة ، والتي خال بينها وبين الأساطير التي نحن بصددها علاقة أستاذنا الجليل صاحب (ذكرى أبي العلاء) فلنا فيها رأي سنذكره عند الكلام عن فردوس دانتي وعن جحيمه أيضاً

ولتشعب البحث نرى أن نضع بين يدي القارئ خلاصات موجزة لكل من رسالة الغفران (مع صور للجنة والجحيم من القرآن الكريم) ، ورؤيا يوحنا اللاهوتي ، وبعض مجازفات أوليسيز من (الأوديسه) ، وأسطورة أرفيوس ، ورحلة هرقل الى هيدز ، والجزء السادس من أنيد ڤرجيل ، ونتبع ذلك بخلاصة لكوميدية دانتي بأجزائها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والفردوس ، ثم نقفي بمقارنة تاريخية لن تضير شاعرنا العربي العظيم في شيء ، لأنه ليس ضيرا ألا يكون دانتي قد احتذى مثال أبي العلاء أو قلد أسطورة المعراج

١ — رسالة الغفران

أرسل علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح إلى أبي العلاء رسالة ضافية يستفتيه فيها عن بعض مشكلات النحو والصرف ، ثم يبدي « غيظه على الزنادقة والملحدين ، الذين يتلاعبون بالدين ، ويرومون إدخال الشبه والشكوك على المسلمين ، ويستعذبون القدح في نبوة النبيين ، ويتطرفون ويتبذلون — إعجاباً بذلك المذهب : (تيه مُغَنّ وظرف زنديق) . . . » ويلم بأخبار بعض الزنادقة كبشار والقصار الأعور والصناديقي والوليد بن يزيد وأبي عيسى بن الرشيد والجنابي والحلاج وابن أبي العُذافر . . . الخ . . . ويشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم إشارة لها معناها ، ثم يذكر شيئاً عن حجه وأسفاره وتحصيله لعلوم اللغة . . . ويتبسط في الحديث كأنما رفعت الكلفة بينه وبين أبي العلاء فيضع بين أيدينا مفتاح رسالة الغفران . . .

وقد قرأنا كل ما كتبه أدباؤنا عن رسالة أبي العلاء فراعنا أن واحداً منهم لم يعرض لرسالة ابن القارح بكلمة ، وراعنا أن واحداً منهم لم يتوفر على دراستها ليدرك العلاقة بين الرسالتين ، وكان يؤلمنا أن بعض أدبائنا لم يكن يدري من أمر رسالة الغفران شيئاً إلا أنها تهكم وسخرية بابن القارح ؛ مع أنها رجع الصدى لزندقته وإلحاده

قال ابن القارح في ختام رسالته : « كنت بتنيس وبين يدي إنسان يقرأ ، ويحزن ، : (يُوفون بالنّذر ويخافون يوماً كان شرُّه مستطيراً ؛ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ؛ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ؛ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطريراً ؛ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نَضرَةً وسروراً ؛ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ؛ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانيةً عليهم ظلالها ، وذُللت قطوفها تذليلاً ؛ ويطاف عليهم بآنية من فضةٍ وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ؛ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ؛ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ؛ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً : عاليَهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلُّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ؛ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ؛ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ؛ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ؛ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ... ...) قال ابن القارح : وكان القارئ يتألم ويبكي ، فخطر لي خاطر فقلت : أنا بضد هؤلاء القوم ، صلوات الله عليهم ! ! ، أنا لا أنذر ، ولا أفي ، ولا أخاف شقاء ولا عناء ! ! »

أفرأيت وسمعت ؟ ! ابن القارح ضد هؤلاء القوم ، صلوات الله عليهم ، لا ينذر ولا يفي ولا يخاف شقاء ولا عناء !! ومع ذلك فهو من علماء المسلمين الذين يفهمون معاني الآيات ، ويعرفون من هم أولئك الأبرار الذين يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ... ابن القارح الذي ذكر في رسالته أنه يغتاظ على الزنادقة والملحدين والطاعنين في الأنبياء بغير الحق لا يهمه أن يكون بضد الأبرار المذكورين في سورة الدهر ، ولا يهمه ألا ينذر ولا يفي فلا يخاف عناء ولا شقاء ؟ !

هنا مفتاح رسالة الغفران ! !

ومن أجل ذلك كان عجبنا شديدا كيف أن أحدا من أدبائنا لم يلتفت الى رسالة ابن القارح ليهتدي الى الروح التي أملت رسالة

(١) نقصد القصة التي وضعها نجم الدين النيلي ولا نقصد حادث المعراج الذي نؤمن به ، وقد وقفنا إلى أشياء عن هذه القصة سنروق القراء ان شاء الله

الغفران .. لقد طرب أبو العلاء أيما طرب أن وجد أديباً مثله معجباً به يقدر أدبه وفلسفته وآراءه فى الحياة والناس ويخاف مثله من مصارحة الناس بما يؤمن فيكتب بهذا الأسلوب المضمر الملغوز الذى يقول فى أوله : إنى أغتاظ على هؤلاء الزنادقة والملحدين مثل بشار والقصار والجنابى والحلاج ومن اليهم ممن يجدفون فى الله وفى كتبه ويشككون الناس فى أنبيائه ؛ ثم يقول فى آخره إنه خطر له خاطر حين سمع قارئ سورة الدهر وهو يقرأ ويحزن ويبكى أنه يضد هؤلاء الأبرار (صلوات الله عليهم ؟ ! !) لأنه لا ينذر ولا يق ، ولا يخاف شقاء ولا عناء !

طرب أبو العلاء أيما طرب لأنه وجد رجلاً مثله لا يؤمن بهذه الجنة التى عرضها السموات والأرض ، ولا بهذه الأنهار من لبن وعسل وخمر ، ولا بهذه العين السلسبيل ، ولا بهؤلاء الولدان المخلدين الذين يطوفون على المؤمنين بأكواب من فضة ، ولا بالحور العين ... ولا يؤمن بما جاء فى أول سورة الدهر مما أعد للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير .. وإذن ، فليكتب أبو العلاء الى ابن القارح ، وليخضع فى كتابته الى ابن القارح لما تسميه السيكلوجية « تداعى المعانى » فيدخل به الجنة ... ولكن قبل أن يدخل الجنة لا بد أن يبعث ... وقبل أن يبعث لا بد أن يموت .. وسيلقاه عزرائيل ساعة الموت ، فلا بأس من أن يناقشه أبو العلاء مناقشة صرفية فكهة مضحكة ، فاذا دخل القبر وأغلق عليه وجاء الملكان منكر ونكير فأى بأس من أن يجادلهما كما جادل عزرائيل ، فاذا رفعا الأرزبة ليدقا بها عنقه فأى بأس أيضاً من أن يربكهما بمناقشة صرفية عن هذه الآلة المحطمة ليشغلهما قليلاً عن تعذيبهما إياه ... ثم أى بأس أيضاً من أن تستمر هذه المناقشة الصرفية فى كل مكان من البعث ، الى أسوار الجنة ، الى الصراط ، الى داخل الجنة نفسها ، الى جهنم ... الخ أليس قد أراد أبو العلاء أن يشارك ابن القارح سخريته ؟ فلم لا يشاركه دعابته ؟ ولم لا يداعبه تلك المداعبة المضحكة بشرط ألا يفهم أنها دعابة إلا ابن القارح ، فاذا قرأها رجل غير ابن القارح وكان عارفاً باللغة وأسرار نحوها وصرفها راقه ذلك التحقيق الفقهى لتصريف تلك الكلمات التى لا يسمن تصريفها ولا يغنى من جوع من مثل (عزرائيل وملك وإرزبة وجهنم ... الخ ...) فاذا كان القارئ مؤمناً ورعا يسره الحديث عن الجنة وملاذها ويخيفه الحديث عن جهنم وآلامها شاقه حديث الرسالة عن متع الفردوس ، وهذا الأوز الذى ينتفض فيكون حورا عيناً باذن الله ، وسمك الحلاوة الذى يسبح فى أنهار الخمر والعسل واللبن والأرى ... وأخافه ما يرى فى السعير من صنوف المجرمين الكافرين الذين كذبوا بيوم الدين ... وما يكذب به الا كل معتد أثيم ...؟ !

وقد طرب أبو العلاء أيضاً ، وازدادت ثقته بصاحبه لأنه عرف فيه رجلاً يعطف مثله على الحيوان ..... لأنه « حدثه من يثق به وكان زاهداً (!) قال : كنت مع أبى بكر الشبلى ببغداد فى الجانب الشرقى بباب الطاق ، فرأينا شاوياً ، وقد أخرج حملاً من التنور ، وإلى جانبه قد عمل حلاوى فالوذجا ، فوقف ينظر إليهما ، وهو ساه مفكر ، فقلت : « يا مولاى ! دعنى آخذ من هذا وهذا ورقاقاً وخبزاً ، ومنزلى قريب ، تشرفنى بأن تجعل راحتك اليوم عندى ، فقال : « ياهذا ، أظننت أنى اشتهيتهما ؟ وإنما فكرى فى الحيوان كله !! لا يدخل النار إلا بعد الموت ... ونحن ندخلها أحياء ! »

إذن ، فليطمئن أبو العلاء إذا كتب إلى ابن القارح ، وليطف به من البرزخ إلى المحشر إلى الصراط ، ولتحمله وصيفة فاطمة الزهراء إلى داخل الجنة (زقفونه) ! وليجذبه ابراهيم إلى الجنة رغم أنف رضوان ... ولتكن هذه الحياة الأخرى مهزلة وملهاة مضحكة سواء أفى الجنة أو فى الجحيم ... وليحرض ابليس زبانية جهنم على جذب ابن القارح ليكون معه فى بطن سقر ..... وليتقارض هذان الساخران الملحدان الضحك على المؤمنين وآله المؤمنين وأنبياء المؤمنين وجنة المؤمنين ..... وليتقارضاه آمنين مطمئنين فليس أحد فى عصرهما بقادر على أن يدرك أنهما يستهزئان بكل ذلك ..... بل كل الناس ستكبر أدب ابن القارح وأدب أبى العلاء .... لأن ابن القارح (يغتاظ على أولئك الزنادقة الملحدين مثل بشار والقصار والجنابى والحلاج لأنهم يجدفون فى الله وينكرون أنبياء الله ويكفرون بكتب الله ويشككون الناس فى كل ذلك) ، ولأن أبا العلاء قد أعطاه صورة من الجنة تزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم وصورة من الجحيم تزيدهم منها خوفاً فوق خوفهم ... وليفرح النحاة بأبى العلاء لأنه حل لهم ألغازاً من الصرف والنحو لم يكونوا قادرين عليها ، وهى عند أبى العلاء

ضرب من الهذيان لا غناء فيه

على أن أشياء أخر فى رسالة ابن القارح تشعر القارئ برقاعة وفجور لا يدلان إلا على زندقة وفسق ، ونفس خبيثة لا تتوقر ، ولسان بذيء ينفث الفحش ، وفم يقيء الدنس ... اقرأ هذه النبذة التى دسها ابن القارح من غير ما مناسبة اقتضتها فى رسالته :

« دفع رجل الى صديق له جارية وأودعها عنده وذهب فى سفره ، فقال بعد أيام ان يأنس به وتسكن نفسه اليه : يا أخى ! ذهبت أمانات الناس ! أودعنى صديق لى جارية ، فى حسابه أنها بكر ، جربتها فاذا هى ثيب !! »

وهو قبل ذلك يشكو الى أبى العلاء انصرافه عن طلب العلم وانغماسه فى الأغراض البهيمية وأنه قبل أن يجيء الى مصر كان يذاكر خمسين ورقة كل يوم ، ولكن الأغراض البهيمية التى عرفها فى مصر وانغمس فيها ثمة صرفته عن جده ومثابرته فهو لا يذاكر إلا خمساً ومع ذاك تكل عيناه فى تحصيلها على قلتها . .

وحديث ابن القارح عن الزنادقة حديث الهازل غير الجاد . . حديث (المتملح) لما كان يصدر عنه هؤلاء الزنادقة من عتو وإلحاد والتماس الرفد والتوسل الى المنفعة بالتدين . . وقد اشتهر عن أبى العلاء نفسه أنه كان يتهم الأنبياء بمثل ما اتهم به ابن القارح الزنادقة من هذا الالتماس للرفد عن طريق الدين ، واللزوميات تفيض بشواهد كثيرة على ذلك

ونحن لا ندرى لم حشد ابن القارح هذا الحشد الكثير من الزنادقة فى رسالته ، وألم فيها بشر ما كان يصدر عنهم من تسفيه الأنبياء ، وسب الخلفاء ، والتبرم بالاسلام وبالمسلمين ؟ أليس كان يشير أبو العلاء الى كثير مثل هذا فى لزومياته ؟

اسمع الى هذا الرجل من يهود خيبر يعرض بموسى ويستهزئ بعمر حين أجلى أهل الذمة عن جزيرة العرب :

يصول أبو حفص علينا بدرّة ... رويدك إن المرء يطفو ويرسب
كأنك لم تتبع حمولة مأقط ... لتشبع ، إن الزاد شيء محبب
فلو كان موسى صادقاً ما ظهرتمو ... علينا ، ولكن دولة ثم تذهب
ونحن سبقناكم الى اليمن فاعرفوا ... لنا رتبة البادى الذى هو أكذب
مشيتم على آثارنا فى طريقنا ... وبغيتكم فى أن تسودوا وترهبوا

واسمع الى الذى يسب أبا بكر لشدة نالته منه فرحل الى بلاد الروم :

لحقت بأرض الروم غير مفكر ... بترك صلاة من عشاء ولا ظهر
فلا تتركونى من صبوح مدامة ... فما حرم الله السلاف من الخمر
إذا أمرت تيم بن مرة فيكمو ... فلا خير فى أرض الحجاز ولا مصر
فان يك اسلامى هو الحق والهدى ... فانى قد خليته لأبى بكر ! !

وهكذا يحشد ابن القارح فى رسالته كل ذلك الفحش من أقوال الزنادقة وهو يعرف أن أبا العلاء قد قال مثل ذلك فى لزومياته ، فكأنه قصد الى أن يغنى على عوده ويضرب وراء هواه ، ... ولا ينفعه بعد ذلك سبه لهؤلاء الزنادقة ، هذا السب الذى كاد يكون رشقاً بالورد وتحية بالريحان وتزويراً على القارئين

* * *

وبعد ، فموضوعنا دانتى وأبو العلاء ، وهذا حديث طويل عن ابن القارح . . ولكنه حديث عن السبب فى كتابة رسالة الغفران سنحتاج اليه حين نتكلم عن السبب فى كتابة الكوميدية الالهية

ولنختم هذا المقال بذيل عن رسالة الغفران ليكون بين يدى القارئ خلاصة خاطفة لها :

دخل المعرى بصديقه ابن القارح جنة الفردوس ، فركب نجيبا يتنقل عليه فى آفاقها ، ثم طفق يطوف على أهلها ممن غفرت لهم خطاياهم فى الدار العاجلة ببيت شعر أو كلمة طيبة ، وترك المعرى لخياله عنانه الطويل فتفنن ما شاء فى وصف حور الجنة وأنهارها وألوان نعيمها ... ويلاقى ابن القارح تميم بن أبى الشاعر فيسأله عن أبيات كان قد قالها ، ثم يتشقق الحديث فيقص ابن القارح على تميم قصة بعثه وهول المحشر ثم حديثه مع رضوان وزفر ، ووروده على الحوض المورود ولقاءه فاطمة بنت النبى واستشفاعه بها وجذب ابراهيم بن النبى اياه فيكون داخل الجنة ... ويعود ابن القارح الى محاورة أهل الفردوس ممن غفر لهم ويطوف بحدائق الحور ثم ينتقل الى جنة العفاريت فيحدثه أهلها بأعجب الأحاديث ... ويشتاق الى الاطلاع على أهل الجحيم ، فيتحدث الى الخنساء (والعجيب وضعها فى النار مع حسن اسلامها ووضع أشد الكفار عتوا فى الجنة ! !) ويتحدث الى ابليس والى طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية ... ثم يعود الى الفردوس فيتحدث الى آدم ... ويخلص الى جنة الرُّجّاز ... ويختتم الكوميدية بوصف بارع لنعيم الخلد ....

« يتبع »

د . ر . غ